دار القاسم

نعم الحج

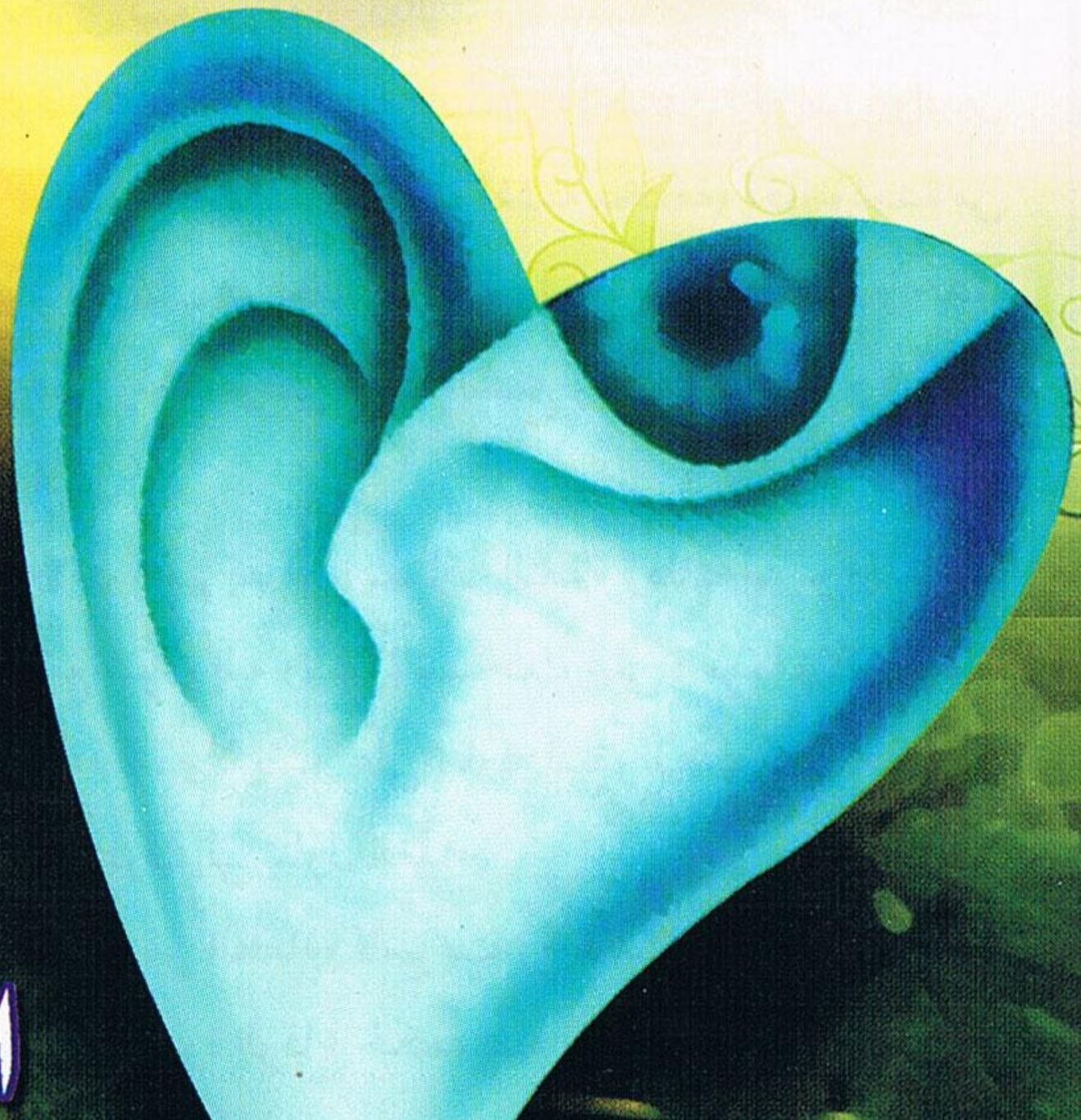

تأليف
ابن قدامه المقدسي

المملكة العربية السعودية - الرياض طريق الملك فهد بين شارعي التلفزيون والخزان
ص.ب : ٦٣٧٣ - الرمز البريدي : ١١٤٤٢ هاتف: ٤٠٩٢٠٠٠ فاكس: ٤٠٣٣١٥٠
جدة : ٦٠٢٠٠٠٠ فاكس : ٦٣٣٣١٩١
موقعنا على الإنترنت : WWW.dar-alqassem.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه. أما بعد:

قال **ابن قدامة** ـ رحمه الله ـ معدداً نعم الله على الإنسان في جوارحه قائلاً:

فأولهما: حاسة اللمس، وهو أول حس يخلق للحيوان، وأنقص درجات الحس أن يحس بما يلاصقه، فإن الإحساس بما يبعد منه أتم لا محاله، فافتقرت إلى حس تدرك به ما بعد عنك، فخلق لك الشم تدرك به الرائحة من بعد، ولكن لا تدري من أي ناحية جاءت الرائحة، فتحتاج أن تطوف كثيراً حتى تعثر على الذي شممت رائحته، وربما لم تعثر، فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك، وتدرك جهته فتقصدها بعينها، إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصاً، إذ لا تدرك بذلك ما وراء الجدار والحجاب، فربما قصدك عدو بينك وبينه حجاب، وقرب منك قبل أن يكشف الحجاب، فتعجز عن الهرب، فخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من وراء الحجرات عند جريان الحركات، ولا يكفي ذلك، لو لم يكن لك حسن الذوق، إذ به تعلم ما يوافقك وما يضرك، بخلاف الشجرة، فإنه يُصَبُّ في أصلها كل مائع، ولا ذوق لها فتجذبه، وربما يكون ذلك سبب جفافها، ثم أكرمك الله تعالى بصفة أخرى، هي أشرف من الكل، وهو العقل، فبه تدرك الأطمعة ومنفعتها، وما يضر في المآل، وبه تدرك طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها، فتنتفع به في الأكل الذي هو سبب صحتك، وهو أدنى فوائد العقل، والحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى، وما ذكرنا من الحواس الخمس الظاهرة، فهي بعض الإدراكات. ولا تظن أننا استوفينا شيئاً من ذلك، فإن البصر واحد من الحواس، والعين آلة له، وقد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة: بعضها رطوبات، وبعضها أغشية مختلفة، لكل واحدة من الطبقات العشر،صفة وصورةوشكل وهيئة وتدبير وتركيب،لو اختلت طبقة واحدة منها أو صفة واحدة، لاختل البصر، وعجز عنه الأطباء كلهم، فهذا في حس واحد ،وقس حاسة السمع وسائر الحواس، ولا يمكن أن يستوفى ذلك في مجلدات، فكيف ظنك بجميع البدن؟!.

ثم أنظر بعد ذلك في خلق الإرادة والقدرة، وآلات الحركة من أصناف النعم، وذلك أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الطعام، ولم يخلق لك في الطبع شوق إليه وشهوة تستحثك على الحركة، كان البصر معطلاً، فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له، ولا يقدر على تناوله لسقوط شهوته، فخلق لك الله شهوة الطعام وسلطها عليك، كالمتقاضي الذي يضطرك إلى تناول الغذاء.

ثم هذه الشهوة لو لم تسكن عند أخذ مقدار الحاجة من الطعام، لأسرفت وأهلكت نفسك، فخلق لك الكراهة عند الشبع لتترك الأكل بها، وكذلك القول في شهوة الوقاع لحكمة بقاء النسل.

ثم خلق لك الأعضاء التي هي آلات الحركة في تناول الغذاء وغيره، منها اليدان، وهما مشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرك في الجهات وتمتد وتنثني، ولا تكون كخشبة منصوبة.

ثم جعل رأس اليد عريضاً، وهو الكف، وقسمه خمسة أقسام، وهي الأصابع وجعلها مختلفة في الطول والقصر، ووضعها في صفين، بحيث يكون الإبهام في جانب، ويدور على الأصابع البواقي، ولو

كانت مجتمعة متراكمة، لم يحصل تمام الغرض، ثم خلق لها أظافر، وأسند إليها رؤوس الأصابع، لتقوى بها، ولتلتقط بها بعض الأشياء الدقيقة التي لا تحويها الأصابع، ثم هب أنك أخذت الطعام باليد، فلا يكفيك حتى يصل إلى باطنك، فجعل لك الفم واللحيين، خلقهما من عظمين، وركب فيهما الأسنان، وقسمها بحسب ما يحتاج إليه الطعام، فبعضها قواطع كالرباعيات، وبعضها يصلح للكسر كالأنياب، وبعضها طواحن كالأضراس.

وجعل اللحي الأسفل متحركاً حركة دورية، واللحي الأعلى ثابتاً لا يتحرك، فانظر إلى عجيب صنع الله تعالى. وإن كل رحى صنعها الخلق يثبت منها الحجر الأسفل ويدور الأعلى، إلا هذه الرحى التي هي صنع الله سبحانه وتعالى، فإنه يدور منها الأسفل على الأعلى، إذا لو دار الأعلى خوطر بالأعضاء الشريفة التي يحتوي عليها.

ثم انظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان، فإنه يطوف في جوانب الفم، ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة، كالمجرفة التي ترد الطعام إلى الرحى، هذا مع ما فيه من عجائب قوة النطق.

ثم هب أنك قطعت الطعام وعجنته وهو يابس، فما تقدر على الابتلاع إلا بأن ينزلق إلى الحلق بنوع رطوبة.

فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عيناً يفيض منها اللعاب، وينصب بقدر الحاجة حتى ينعجن به الطعام.

ثم هذا الطعام المطحون المعجون من يوصله إلى المعدة وهو في الفم، فإنه لا يمكن إيصاله باليد، فهيأ الله تعالى المريء والحنجرة، وجعل رأسها طبقات ينفتح لأخذ الطعام، ثم ينطبق وينضغط حتى يقلب الطعام، فيهوي في دهليز المريء إلى المعدة، فإذا ورد الطعام إلى المعدة وهو خبز وفاكهة مقطعة، فلا يصلح أن يصير لحماً وعظماً ودماً على هذه الهيئة حتى يطبخ طبخاً تاماً، فجعل الله المعدة على هيئة قدر يقع فيها الطعام، فتحتوي عليه وتغلق عليه الأبواب، وينضج بالحرارة التي تتعدى إليها من الأعضاء الأربعة، وهي الكبد من جانبها الأيمن، والطحال من جانبها الأيسر، والثرب من أمامها، ولحم الصلب من خلفها، فينضج الطعام ويصير مائعاً متشابهاً يصلح للنفوذ في تجاويف العروق، ثم ينصب الطعام من العروق إلى الكبد، فيستقر فيها ريثما يصلح له نضج آخر.

ثم يتفرق في الأعضاء ويبقى منه ثقل ثم يندفع.

ولو استوفينا الكلام في ذلك لطال.

وفي الآدمي من العضلات والعروق ما لا يحصى، مختلف بالصغر والكبر والدقة والغلظ، ولا شيء منها إلا وفيه حكمة، وكل ذلك من الله سبحانه، ولو سكن من جملتها عرق متحرك، أو تحرك عرق ساكن، لهلكت يا مسكين.

فانظر إلى نعم الله تعالى عليك، لتقوى على الشكر، فإنك لا تعرف من نعمة الله تعالى إلا نعمة الأكل، وهي أخسها، ثم لا تعرف منها إلا أنك تجوع فتأكل، والبهيمة أيضاً تعرف أنها تجوع وتأكل، وتتعب فتنام، وتشتهي فتجامع، وإذا لم تعرف أنت من نفسك إلا ما يعرف الحمار، فكيف تقوم بشكر الله تعالى؟! وهذا الذي رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر من نعم الله تعالى، فقس على ذلك.

وجملة ما عرفنا وعرفه الخلق كلهم من نعم الله تعالى بالإضافة إلى ما لم يعرفوه، أقل من قطرة في بحر. قال الله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم: ٣٤و النحل: ١٨]

عجائب الأغذية والأدوية:

واعلم: أن الأطعمة كثيرة مختلفة، ولله تعالى في خلقها عجائب لا تحصى. وهي تنقسم إلى أغذية وأدوية وفواكه وغيرها.

فنتلكم عن بعض الأغذية، فنقول: إذا كان عندك شيء من الحنطة، فلو أكلته لفنيت جائعاً، فما أحوجك إلى عمل ينمى به حب الحنطة ويتضاعف، حتى يفي بتمام حاجتك، وهو زرعها، وهو أن تجعلها في أرض فيها ماء يمتزج ماؤها بالأرض فيصير طيناً ، ثم لا يكفي الماء والتراب، إذ لو تركت في الأرض ندية صلبة، لم تنبت لفقد الهواء، فيحتاج إلى تركها في أرض متخلخلة يتغلغل الهواء فيها، ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه، فيحتاج إلى ريح تحرك الهواء، وتصرفه بقهر على الأرض، حتى ينفذ فيها، ثم كل ذلك لا يغني، فيحتاج إلى حرارة الربيع والصيف، فإنه لو كان في البرد المفرط لم ينبت.

ثم انظر إلى الماء الذي تحتاج إليه هذه الزراعة كيف خلقه الله تعالى؟ فجَّر العيون وأجرى منها الأنهار، ولما كان بعض الأرض مرتفعاً لا يناله الماء، أرسل إليها الغيوم، وسلط عليها الرياح لتسوقها بإذنه إلى أقطار العالم، وهي سحب ثقال ثم يرسله على الأرض مدراراً في وقت الحاجة.

وانظر كيف خلق الله الجبال حافظة للماء، تنفجر منها العيون تدريجاً، فلو خرجت دفعة واحدة لغرقت البلاد وهلك الزرع وغيره.

وانظر كيف سخر الشمس وخلقها، مع بعدها عن الأرض، مسخنة لها في وقت دون وقت، ليحصل البرد عند الحاجة إليه، والحر عند الحاجة إليه.

وخلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب،كما جعل من خاصية الشمس التسخين فهو ينضج الفواكه بتقدير الحكيم الخبير،وكل كوكب خلق في السماء،فهو مسخر لنوع فائدة،كما سخرت الشمس والقمر.ولا يخلو كل واحد منها عن حكم كثيرة لا تفي قوة البشر بإحصائها،وكذلك الشمس والقمر؛فيهما حكم أُخر غير ما ذكرنا لا تحصى.

ولما كانت كل الأطعمة لا توجد في كل مكان،سخر الله تعالى التجار،وسلط عليهم الحرص على جمع المال،مع أنه لا يغنيهم في غالب الأمر شيء،بل يجمعون الأموال،فإما أن تغرق بها السفن أو تنتهبها قطاع الطرق،أو يموتون في بعض البلاد،فتأخذها السلاطين.وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم،وهم أشد أعدائهم لو عرفوا.فانظر كيف سلط الله عليهم الأمل والغفلة،حتى يقاسوا الشدائد في طلب الربح في ركوب البحار،وركوب الأخطار،فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك.

دار القاسم تقدم برنامج القراءة بالمراسلة: يصلك شهرياً ٤كتيبات + ٤كتيبات جيب + ٤مطويات بإشتراك سنوي ١٧٥ ريال فقط

حقوق الطبع والنشر محفوظة

1001486

SR 0.13